المحكمة ...

بقلم اللورد برتراند رسل

من الواضح ان جل المثقفين العرب مصابون حتى المقاتل بتخلف كارتي ومفزع ، ان على صعيد الفكر وان على صعيد الضمير بشأن رصد الاحداث واتخاذ مواقف مسؤولة وحاسمة منها .

والمهم هنا هو الاشارة والتشديد على الوجه الاخلاقي لهذه الازمة العجيبة :

أولا على مستوى الوطن العربي : حيث تنتهك في اكثر من مكان حرمة البشر . وتصادر بوقاحة الحريات الاساسية للانسان . ويعذب الناس العاديون وكذلك الكتاب والشعراء بقلب تهز النشوة أعطافه . لا اثر لرد جدي على هذه التحديات اللاانسانية فيما يكتب اكثر المثقفين العرب ، كما لو كانت هذه المناكر تقع على سطح كوكب آخر .

ثانيا على مستوى العالم : منذ شهور قليلة أدين مثقف بالاعدام من المحكمة العسكرية العليا بايران . وكان شاهد الادانة الوحيد كتابا : أطروحة الدكتوراه التي كتبها عن حروب العصابات في الصين وكوبا .

ومنذ بضعة شهور أيضا حكم على كاتب تركي بالسجن ستة اعوام مع الاشغال الشاقة وكانت جريمته الوحيدة رأيا كتبه في صحيفة تركية يؤكد ، صوابا أو خطأ ، ان « الاشتراكية هي البديل الوحيد لآلام الشعب التركي وبؤسه » .

ومنذ بضعة أعوام يواصل الجنود الاميركان ومرتزقتهم حرق المحاصيل والمواشي والاطفال في فيتنام .

فهل هزت هذه الاعاصير ذلك الضمير النائم في اكثر المثقفين العرب ؟ وهل اتخذ ، بالإخص ، ذوو الشهرة منهم مواقف في مستوى بشاعة هذه المظالم المستوردة من عصور ما قبل التاريخ ؟ كلا ، بل من الجائز جدا ان يكونوا أعفوا أنفسهم حتى من « مشقة » الوقوف عليها .

ان مقارنة هذه السلبية ، التي تدل على عطب في حسنا الانساني ، بيقظة الضمير المدهشة والرائعة في صفوف الرأي العام المثقف في اوروبا ، جديرة بأن تحرك فينا شعورا مريرا وجارحا بالعار .

لقد تألفت لجنة أوروبية للدفاع عن ضحايا القمع في قطر عربي . وأصبح لهذه اللجنة فروع ونشاطات في ربوع القارات الخمس الا في الوطن العربي !

وبعد صدور حكم المحكمة الايرانية الجائر ألف ج.ب. سارتر لجنة للدفاع عن المثقف الايراني ورفاقه ترأسها بنفسه . واستسلم طغاة طهران أمام الضغط المعنوي الضارب للرأي العام الاوروبي المثقف فلم يرسلوا بالكاتب الايراني الى عمود الاعدام .

وللرد على شراسة الحرب الفيتنامية ، التي باتت تهدد ، بجد وخطورة ، كل سكان المعمورة بكارثة نووية ساحقة ، تألفت في كل مكان في العالم تقريبا لجان محلية وقارية وعالمية للمساعدة غير الحكومية للشعب الفيتنامي الشهيد . ومن بين المبادرات المعادية لهذه الحرب القذرة دعوة الفيلسوف العجوز اللورد برتراند راسل لتأليف محكمة شعبية عالمية لمحاكمة مجرمي هذه الحرب : مكنامارا ، دين راسك ، ولندون جونسون .

وعن طريق الصحافة دعا الفيلسوف البريطاني كل مفكري العالم للمشاركة في هيئة المحكمة . وقد استجاب لدعوته حتى الان عدد من المفكرين والكتاب ليس بينهم عربي واحد : لا طه حسين ، ولا ميخائيل نعيمة ، ولا توفيق الحكيم ، ولا نجيب محفوظ . بل لعله من حقنا ان نسأل ونتساءل عن حقيقة مواقف هؤلاء الكتاب من هذه الحرب الظالمة ، لان أيا منهم ، فيما أعلم ، لم يتخذ منها حتى الان موقفا » .

المترجم

***

عند افتتاح محاكمة نورمبيرغ صرح جاكسون المدعي العام الاول بالمحكمة العليا للولايات المتحدة الاميركية : « ان المدعي الحقيقي الذي سنستمع اليه هو الحضارة . الحضارة التي تتساءل عما اذا كان القانون قد تخلف حتى أصبح عاجزا تماما عن الاقتصاص من المانيا التي اقترفت مآثم كبرى ... ان الحضارة تنتظر من هذه المحكمة ان تجعل قوة القانون الدولي ، بفروضها ونواهيها ونظامها الاقتصاصي ، تقف في صف السلام » . وخلال هذه المرافعة قال جاكسون ايضا : « اننا بعد اليوم على يقين من انه اذا بادر رجل قانون او امة الى القيام بدعوى على الجرائم التي ترتكب ضد السلام العالمي ، فلن يعترض عليهما بالحجة القائلة ان مثل هذا العمل مرفوض لانه لا سابق له » .

اكتسبت اليقين ، بينما كنت اتذكر هذه الكلمات ، بأنه يجب من جديد ، وبصورة مشهودة ، ان ندافع عن

الحضارة بتشكيل محكمة تناط بها مهمة التحقيق في الجرائم التي تقترفها حاليا قوة عسكرية كبرى ضد شعب صغير .

منذ سنوات والى هذه الساعة تتعرض أمة زراعية صغيرة لهجمات عملاق صناعي . وهل هناك ما هو اكثر فظاظة من قصف حربي متواصل لشعب من الفلاحين لا يملك طائرات حربية ؟

ان الثورة الفيتنامية هي احد عناصر نهج تاريخي بدأت به الشعوب الجائعة والامم المسحوقة اجتماعيا تناضل لكي تكتب النصر للمطالبة بحقها في الحياة . وان اللجوء الى القوة والى الوسائل الغاشمه لتفتيت ثورة هذا النضال من اجل الحياة هو الهدف الذي رسمته لنفسها الولايات الاميركية المتحدة .

فاوض الفيتناميون لحصول على استقلالهم ، على كرتين ، وفي كلتا الكرتين بعد نضال مرير ان في سنة ١٩٤٦ وان في سنة ١٩٥٤ . ولكن في الحالتين تعرضوا للغدر وانتهكت المواثيق الصريحة التي وقعوها . ودفعوا وحدهم الاما لا يطاولها الحصر . قد لا يكون ثمة من داع للتذكير بأن الفيتناميين الذين هلكوا بين عامي ١٩٥٤ و ١٩٥٩ كانوا اكثر من الذين هلكوا منهم منذ عام ١٩٦٠ حتى الان . ومعنى هذا ان نشاطات الولايات المتحدة وعملائها في سايغون قد أحدثت من القتلى الفيتناميين خلال « سنوات السلام » المزعومة ، اكثر مما احدثته بهم منذ انخرطوا في درب المقاومة المسلحة . وهذا حتى اذا قرأنا ايضا حسابا للعدد الاجمالي للموتى الذين قتلوا بسبب القصف المتواصل منذ عشرين شهرا للجزء الشمالي من البلاد .

لقد اخبرنا الاميركيون أنفسهم بأن حوالي ١٤٠٠ طن من المتفجرات يسقط كل يوم على فيتنام الشمالية : التي تقوم طائراتهم في سمائها بـ ٦٥٠ غارة ، في المتوسط ، كل أسبوع . وان أطنان القنابل التي أمطروا بها هذا البلد اليائس تجاوزت كمية الاطنان التي استعملت اثناء الحرب العالمية الثانية وخلال الحرب الكورية . ولا أحد يجهل ، فضلا عن هذا ، ان الاميركيين يجربون في شمال وجنوب الخط السابع عشر نماذج من الاسلحة الجديدة تبتدىء بالغاز المشل وتنتهي بعلب الجراتيم ، مرورا بالنابالم الفائق ، وقنابل التشظي ، والمستحضرات الكيماوية المجدبة للارض .. الخ ..

هل هم ، اذن ، قليلون الغربيون الذين يستطيعون تجاهل هذه الوقائع التي تقدمها لهم السينما والصحافة والتلفيزيون كل يوم تقريبا ؟ من منا لم ير الصور ؟ ومن منا لم يقرأ الارقام ؟

اننا نعرف جميعا ان النضال الذي يقوده الفيتناميون، للفوز باستقلالهم الوطني وللتعجيل بتحويل مجتمعهم ، هو من طراز نضال داوود ضد غونيات . ولاننا جميعا نعرف

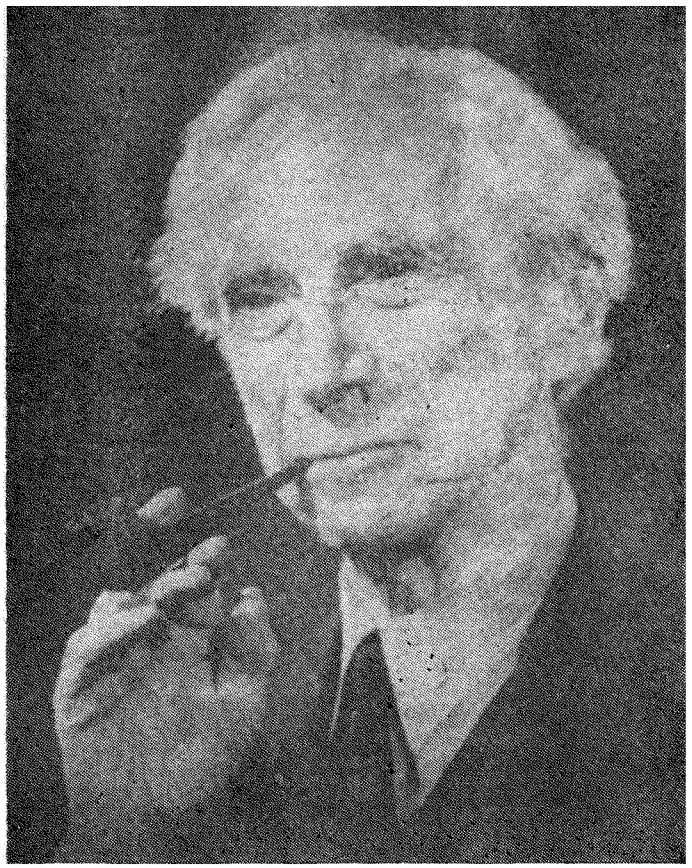

ذلك فان لندائي ، لاجتماع محكمة عالمية ، لتحكم على جرائم الحرب ، معنى .

لا داعي اطلاقا بان لا يكون للذين دعوا لتشكيل هذه المحكمة وجهة نظر معروفة ضد حرب فيتنام . بل بالعكس وبالضبط لان لهم قناعة متحمسة بان الفيتنام في الساعة الراهنة مسرح لحرب بشعة فانهم يشعرون بانهم ، اخلاقيا ، مرغمون على ان يجتمعوا في محكمة ضمير النوع الانساني . وهل يجب ان يكون الانسان فكرا خاويا ليكون فكرا حرا ؟ كلا ، لا أعتقد بأنه لكي يكون المرء عادلا يجب ان لا تكون لديه أية قناعة .

واخيرا فان هذه المحكمة ستأخذ سمعتها وسلطتها من صرامة الاجراءات التي ستأخذ بها نفسها .

***

ستجتمع المحكمة في لندن في الثالث عشر من نوفمبر (تشرين الثاني) وعندئذ ستعلن عن اهدافها بالتفصيل ، وعن تنظيمها ، وعن برنامج عملها . ومن المحتمل ان الحجج والشهادات ، التي ستطالب لجانها المقبلة بتجميعها ، ستوزع على خمسة ميادين هي التالية :

١) العدوان ، انتهاك المعاهدات والمواثيق بين الدول .

٢) تجريب أسلحة جديدة (غاز ، مستحضرات كيماوية خاصة الخ) .

٣) قصف المستشفيات والمدارس ومستوصفات مرضى السل ، والسدود ، وأهداف أخرى

ذات صبغة مدنية بحتة .
٤) تعذيب وتشويه الاسرى .
٥) الابادة النوعية (معسكرات العمل الشاق ، الاعدام الجماعي ، وتكنيكات ابادة السكان الاخرى) .

ستباشر المحكمة عملها كما لو كانت لجنة لتقصي الحقائق . والمعطيات التي ستجمعها اللجان ، التي سترصد لهذا العمل ، سوف تفحص على نحو منهجي . وعند الاقتضاء ستعرض على طرق الاختبار العلمي . وشهود الدفاع ، بالطبع ، لن يكونوا مكرهين على الحضور امام المحكمة . بيد ان حكومة الولايات المتحدة والرئيس جونسون قد دعيا لايفاد ممثل عنهما لدى المحكمة . والجرائم الوحيدة التي ستدينها المحكمة هي الجرائم الثابتة بوجه لا طعن فيه والتي تكفي لتبرير قناعة المحكمة ، ويترتب على هذا انه سيكون من المستحيل اقامة اشارة تساو بين العنف الذي اقترفه المعتدي الماثل للمحاكمة لمواصلة عدوانه والعنف الذي اقترفه ضحايا هذا المعتدي لمقاومة العدوان . ان العاجزين عن التمييز بين تمرد احياء فرصوفيا المنبوذة ونشاطات الجيستابو ، بين النضال الذي قاده الانصار اليوغسلاف والوطنيون النورفيج والمقاومون الفرنسيون وبين حروب الغزو التي شنتها الجيوش النازية ، هم فقط الذين سيستغربون من المحكمة رفضها ان تضع على قدم التساوي تصرف الاميركيين كغزاة وتصرف الفيتناميين كمقاومين .

***

ينبغي ان نلاحظ — وهذا امر جوهري — ان أسرة الفقهاء الذين سيساعدون المحكمة على اشغالها ، ستسهر على رعاية الشكل القانوني للحجج التي ستقدم للمحكمة . بمعنى ان تكون حجج الدفاع والاتهام قانونية بشكل لا جدال فيه . وستسهر ايضا هيئة الفقهاء على الفحص الكامل للحجج التي من حق الولايات المتحدة الاميركية ان تقدمها دفاعا عن نفسها .

غونتر انديرس ، لوليو باسو ، سيمون دوبوفوار ، لازيرو كارديناس ، ستوكلي غارميشال ، جوزي دوكانزو ، فلادمير دي ديجال ، اسحاق دويتشر ، دانيلو دولسي ، جان بول سارتر (*) ، لورانت شفارتس وبتر فائس . هذه هي اسماء الذين قد قبلوا ان يشاركوا في هيئة المحكمة حتى اللحظة التي اكتب فيها هذا الفصل .

اني مقتنع بأن المحكمة التي ستكون حرة من التقيد بتعقيدات العلاقات بين الدول ، وحرة من كل اهتمام بسياسة الامر الواقع ، ستقدم لضمير النوع الانساني وسيلة سعيدة للتعبير . ويجب ان تكون جديرة بان تتصرف كمحكمة ثورية حقيقية ، بمعنى ان تترجم في مداولاتها وفي قراراتها عن آمال الناس المصممين على ان لا يستطيع الرعب والظلم بعد اليوم ان يواصلا الجولان في العالم دون ان يتعرضا للمحاكمة لهذا السبب الوحيد : هو ان الضحايا هم من المستضعفين ، وان الجلادين هم من الذين يسيطرون على النصيب الاوفر من مصادر الثروة في هذا الكوكب .

ترجمة العفيف الاخضر

(*) عين سارتر اخيرا رئيسا لهذه المحاكمة في لندن (الاداب) .

دار الاداب تقدم

الطبعة الثانية من

الرواية العالمية الرائعة

زوربا

تاليف الكاتب اليوناني الكبير

نيكوس كازانتزاكيس

ترجمة جورج طرابيشي

رواية مدهشة تنبض بالحياة وتمزج الاحداث المشوقة بفلسفة عميقة تثير التامل والمتعة . وقد اتيح للمواطنين العرب حديثا ان يروا هذه الرواية على الشاشة البيضاء تحت عنوان ((زوربا اليوناني)) . وهذا الشهر تصدر الطبعة الثانية من هذه الرواية ، ولم يمض على صدور الطبعة الاولى اكثر من اربعة اشهر !

الثمن ٥ ل.ل